عظيمة الحسينى

«تراكمت الأحزان مع تراكم سنوات سجن إخوتى، وذات يوم عدت مكتئبة بعد زيارة لسجن المحاريق. أرادوا أن يروحوا عنى، أخذونى إلى فرح إحدى قريباتى. هناك ألحوا فى أن أطلق زغرودة اشتهرت بها، تمنعت فالحزن يخيم على صدرى، ألحوا.. أطلقت زغرودة استمرت واستمرت واستمرت ولم أستطع أن أسكتها إلا فى المستشفى»
عظيمة الحسينى
(فى حوار معها)

الأب مهندس من أسرة ميسورة الحال ودرس الأدب فى الجامعة الأمريكية ثم درس فى كلية الهندسة، والأم تعلمت لسنوات عدة فى مدرسة الراهبات. ثم إلى البيت فالزواج. الأب ثائر يتفجر ثورية، فعلها فى ثورة ١٩١٩، لكنه لم يتوقف، ظل ثائرا حتى آخر أيام حياته، وأدت ثورته إلى مطادرة له فى وظيفته يطاح به إلى بلد جديد مع كل انطلاقة فى تمرده. ينتقل ومعه أسرته إلى القاهرة - دمنهور - بنى سويف - أسيوط- الأقصر - نجع حمادى - قوص - رفح.. وأماكن أخرى عديدة.

هى تعلمت حتى «الثقافة» وأصدر الجد أمراً بأن ذلك يكفى. الأب كان يتابع الثورة الفلسطينية (١٩٣٦) ويتحدث عنها مع كل من يعرفه وعن البطل عبد القادر الحسينى حتى تصوروا أنه قريبه، ولما استشهد البطل أتوا ليقدموا له واجب العزاء، فأقام سرادقا وتقبل العزاء فعلا. وتبقى فلسطين راسخة فى وجدان الفتاة الصغيرة «عظيمة». ومنذ ذلك الحين وهى تشعر بأنها بالفعل تنتسب إلى فلسطين. وعندما أصبحت شابة انضمت إلى منظمة فتح، وربما كانت المصرية الوحيدة التى انضمت إلى صفوف فتح. قلبها كان دوما مع الفقراء. إلى جوارهم كانت أسرة فقيرة بناتها يرتدين ملابس فقيرة أيضا، فى غفلة من الأم جمعت كل ملابسها وذهبت لتهديها لهذه الأسرة. وعندما أصبحت شابة أسست جمعية لمساعدة الطالبات الفقيرات، تجمع من الجيران والأصدقاء والأقارب ملابس «نصف عمر» تغسلها وتكويها ثم توزعها على الطالبات. أنها أيضا صاحبة هذا الاختراع الذى

يقدمه اتحاد النساء التقدمى فى إقامة معارض للملابس المستعملة.

الإخوة خمسة: بهى - عادل - مصطفى - هانى - مهدى، جميعا مسهم شغف النضال اليسارى تماما كما فعل الوطن مع أبيهم. فى البداية كان بهى ثم مصطفى ثم عادل.. ثم الجميع. وهكذا وجدت عظيمة نفسها مسئولة عن ملاحقة خمسة يلاحقهم الأمن. وفى الزمن الناصرى كانت ملاحقة الأمن صعبة؛ السجون شرسة والمنافى أكثر شراسة بما جعلها فى دوامة نضال دفاعا عن السجناء، الفتاة التى رضعت عشق الوطن وحب الفقراء عاشت محنة ملاحقة سجناء الناصرية حيثما وجدوا تدافع عنهم - تحشد العائلات فى مظاهرات غاضبة - تنقل الرسائل من سجن لسجن - ومن السجن للخارج. فرضت نفسها على الجميع كقائدة للدفاع عن سجناء الناصرية.

وتكونت كتيبة الأمهات والأخوات والزوجات لتخوض نضالا بطوليا يحمى ظهر الرفاق، وينقل صرختهم إلى الشارع وإلى خارج البلاد. أم محمد عثمان، أم محمود العطار، سميحة البرلسى زوجة سعد زهران، أم حمدى مرسى، نجية المانسترلى، خالدة المانسترلى.. ومع هؤلاء جميعا فتاة تتقد حماسا هى عظيمة الحسينى، وتحكى لى فى حوارها كيف كانت البداية «فى ١٩٥٤، أتى البوليس ليقبض على مصطفى، بكيت وانهمرت دموعى لكن أمى صاحت: هو انتى مش وطنية، لازم تعرفى إن فيه سيدات بطلات فأخت البطل عبد الفتاح عنايت كانت مثله تخوض معركة الوطن وتدافع عنه وهو فى السجن».

وفجأة أصبحت عظيمة زعيمة لجيش من عائلات السجناء الشيوعيين، حكايات السجن والمعتقل لم تزل عالقة بذهنها، فقد تعلمت كيف تحفظها أثناء الزيارة لتنقلها إلى الرفاق خارج السجن ومنها إلى الرأى العام خارج الوطن. ولم تزل تتذكر قصص الإرهاب الدموى فى سجن الواحات حيث سجن مهدى، وفى سجن العزب (الفيوم) حيث سجن مصطفى، ذات يوم زارت شقيقها فى سجن المحاريق، حملت معها صناديق عديدة من أسر السجناء الشيوعيين كانت المناسبة مغرية، فالزيارة ستتم يوم العيد. بعد رحلة مضنية فوجئوا بالسجناء مضروبين والسجن كله فى «تكديرة». والزيارة ممنوعة والأكل الخارجى ممنوع، صرخت، احتجت، شتمت، أخيرا سمح لها المأمور بالزيارة، أما الأكل فلا وألف لا. لكن العنيدة لا تكف عن العناد، ربطت الصناديق فى حبل وظلت تجره هى وأحد الزائرين أربعة كيلو مترات وهما يدوران بالصناديق فى حر الصحراء بحثا عن منفذ فى السور تلقى منه بالطعام للسجناء، لكنها فوجئت بنقطة لحرس الحدود، ضابط شاب وبضعة جنود فى قلب الصحراء أجلسوها حكت لهم، رق قلبها لهم فتحت صندوقا وأخرجت بطة محمرة

وصينية رقاق. أكلوا. هى لم تأكل، فكيف تأكل والرفاق لم يأكلوا، الضابط الشاب أوفى بوعده لها، وقام بنفسه بتهريب الصناديق إلى السجناء.

والقصص بلا نهاية، فالوحشية فى الزمن الناصرى كانت بلا نهاية. «مصطفى» كان فى معتقل العزب بالفيوم، لا زيارات، فقط رسائل عن طريق المباحث، أرسل عديدا من الخطابات إلى أمه يطلب صورة لولديه بسمة وهانى، ألح فى طلب الصورتين، ذات يوم استدعاه المأمور وسأله: انت عايز صور ولادك؟ وأجاب أيوه، فأخرج الصورتين ومزقهما أمام عينيه، مصطفى ثار وحاول أن يضرب المأمور فساقوه إلى التأديب حيث ضرب ضربا مبرحا. عبر أحد السجانة سمعت عظيمة بالخبر، ذهبت إلى باب السجن تطلب زيارة أخيها، رفضوا، هتفت بأعلى صوت «يسقط عبد الناصر المجرم» وظلت تهتف حتى قبضوا عليها. سألها وكيل النيابة الهمام سؤالا واحدا «من أبلغك بواقعة ضرب أخيك؟».

وفى ظل هذا الحشد من المأسى ومن القصص. عاشت عظيمة نضالا عظيما. بعد النكسة عملت مع فتح بحماس، فى جناح فلسطين بالمعرض الصناعى ١٩٦٩، بدأت تجمع التبرعات للشعب الفلسطينى ومن المعرض إلى الشارع.. سيدة من بولاق أتت إليها بعربة كارو وتحمل عليها كل ما فى البيت من نحاس تبرعا لفلسطين. من حصيلة التبرعات افتتحت «فتح» عيادة طبية صغيرة فى شارع جواد حسنى كانت النواة لمستشفى فلسطينى، وعندما يأتى السادات يسجن هانى وتواصل عظيمة معركتها فى خدمة الرفاق السجناء. لكن الزمان المتقلب أطاح بقيادات الناصريين إلى السجون وتجمعوا فى مستشفى قصر العينى حيث ينعمون برعاية لا بأس بها. لكن زملاءهم بالخارج لم يهتموا بهم، نسوهم تماما، وكان علينا أن نسمو فوق جراح الماضى ونقدم لهم العون. دفاعاً، وحملات عالمية تطالب بالإفراج عنهم، وتواصلا معهم، ومن غير عظيمة تقوم بهذا التواصل وتقوم بزيارة خصوم الأمس محملة بالطعام والهدايا من التجمع. وتوالت زيارتها لهم تحمل لهم الطعام والأخبار وتنقل منهم الأخبار وتتابع معهم الحملات العالمية التى ينظمها «التجمع» للإفراج عنهم، كل ذلك فعلته وهى تتذمر لكنها امتثلت للقرار الحزبى.

لكن لعظيمة الوجه النضالى الآخر، فهى واحدة من مؤسسات اتحاد النساء التقدمى. وهى برسائلها التى لا تنقطع تمثل ضميرا يقظا ولا يهدأ.

إنها عظيمة فعلا.